"صدور الكثرة عن الواحد" بين

الحكمة المتعالية والمدرسة الإشراقيّة

عين الله خادمي

ترجمة طارق عسيلي

الكلمات المفتاحيّة: عين الله خادمي، الملّا صدرا، الوجود، العقل، الفيض، المشّاؤون، الإشراقيّون، الصوفيّون.

أثبت الفلاسفة المسلمون عددًا كبيرًا من القواعد والمبادئ المتّصلة بالمناقشات الكوزمولوجيّة التي حاولوا من خلالها توضيح وتفسير حوادث العالم، والعلاقات بين الموجودات، وتحليل الروابط بين عوالم الوجود المختلفة، ومن هذه المبادئ مبدأ الواحد "الواحد لا يصدر عنه إلّا واحد". بحسب هذا المبدأ، أعلن الفلاسفة أنّ الواحد من جميع الجهات لا يمكن أن يصدر عنه إلّا موجود واحد. من جهة أخرى يعتقد الفلاسفة المسلمون أنّ الحقّ بسيط الحقيقة وهو واحد من جميع الجهات.

إذا أخذنا بالاعتبار الحقيقة القائلة أنّ في هذا العالم عددًا من الموجودات لا يعدّ ولا يحصى، يمكننا أن نطرح مجموعة من الأسئلة:

"كيف يمكن أن يوجد في العالم كثرة موجودات صادرة عن الحقّ الذي هو واحد من جميع الجهات؟". و"هل يمكن تقديم حلّ معقول لهذه المشكلة لا يتنافى مع مبدأ الواحد؟".

لكي يحلّ العلماء المسلمون مسألة صدور الكثرة عن الواحد، ويشرحوا عدم التعارض بين تحقّق كثرة الموجودات ومبدأ الواحد، اقترحوا عددًا من النظريّات، أهمّها:

1- نظريّة الفلاسفة المشّائين التي اقترحها ابن سينا والفارابي.

2- نظريّة الإشراقيّين التي اقترحها شيخ الإشراق.

3- نظريّة الصوفيّين.

4- نظريّة ملّا صدرا التي تشكّل النقطة المركزيّة لبحثنا هذا.

في كتابه **الشواهد الربوبيّة**، اتّبع ملّا صدرا المنهج نفسه الذي اعتمده في الواردات القلبيّة في مسألة مناقشة "كيفيّة صدور الكثرة عن الواحد"؛ حيث سمّى الصادر الأوّل بـ"الفيض الأوّل" واختاره كموضوع لمناقشته في مسألة "كيفيّة صدور الموجودات من خلال الفيض الأوّل".

وفي مكان آخر من **الشواهد الربوبيّة**، ينطلق بشكل واضح من النظريّات الكونيّة المشّائيّة والإشراقيّة في نظام الفيض، ويكشف عن اهتماماته الصوفيّة، وكذلك يقدِّم وجهات نظره "في كيفيّة صدور الكثرة عن الواحد" كأنّه أحد المتصوّفة، كما يتحدّث عن الصادر الأوّل على أنّه الوجود المنبسط، ويوضّح المسألة من خلال تصنيف الوجود إلى فئات مختلفة على الشكل التالي:

1- وجود مستقلّ استقلالًا تامًّا لا يقيَّد بأيّ قيد، وهذا الوجود هو مصدر نظام الوجود، وكلّ الموجودات تتعلّق به بوجودها.

2- وجود يرتبط بالآخر بنحو ما، وهو مقيّد ببعض القيود، يندرج ضمن هذه الفئة كلّ الموجودات، مثل، العقول والنفوس والموجودات الطبيعيّة والمادّة والأجسام.

3- وجود برزخيّ بين مرتبة الحقّ والماهيّات المحرومة من استقلاليّة الوجود. إنّ هذا النموذج الثالث هو الوجود المنبسط والكلّيّ الذي يسمّيه المتصوّفة "النفس الرحمانيّ" وأنّ هذا الوجود هو الفيض الأوّل وحقيقة العالم الذي يمتدّ نوره وحياته على كلّ شيء في السموات والأرض بحسب مرتبته الوجوديّة.

وبالإشارة إلى كلمات الصوفيّين، يقول ملّا صدرا:

صنَّف الصوفيّون الوجود، مثلنا إلى ثلاث فئات:

1- وجود هو حقيقة مطلقة، وهذا الوجود هو الله تعالى.

2- وجود صرف شبيه بالحقّ وهو الوجود المنبسط.

3- وجود مقيّد وهو فعل الحقّ.

في مناقشته لمسألة العلّيّة في كتاب **الأسفار**، ذكر ملّا صدرا هذه الفئات الثلاث قائلًا: "تمثّل الفئة الأولى وجودًا لا يتعلّق بالآخر بينما في المرتبة الثانية يتعلّق الوجود بالآخر. الفئة الثالثة تمثّل الوجود المنبسط". ثمّ يصف الوجود المنبسط بتفصيلٍ يكشف عن أفكار ملّا صدرا الصوفيّة بخصوص مسألة "نظام الفيض".

فيما يلي سنناقش بإيجاز الأفكار الصوفيّة والإشراقيّة حول "صدور الكثرة عن الواحد".

إذا قارنّا أفكار ملّا صدرا بأفكار الإشراقيّين حول نظام الفيض نجد أنّه فضّل بعض عناصر ومكوّنات النظام الفلسفيّ الإشراقيّ على عناصر ومكوّنات النظام الفلسفيّ المشّائيّ، ثم وظّفها في تفسير نظام الفيض عنده. وسوف نناقش بعض هذه العناصر في الأسطر التالية:

1- إنّ ملّا صدرا والإشراقيّين مهتمّون بالصيغ والأوجه الموضوعيّة في مسألة صدور الكثرة عن الواحد. وقد قدَّم الفلاسفة المشّاؤون الاعتبارات العقليّة الثلاث كسبب رئيسيّ لظهور الكثرة في العقل الأوّل والعقول الأخرى.

في شرحه لنظام الفيض، يتّبع الفارابي نظامًا ثنائيًّا معتقدًا أنّ هناك طريقتين بالتحديد، "تعقّل المصدر وتعقّل الذات" يسبّبان صدور عقل وفلك آخرين في كلّ عقل، وتستمرّ هذه العمليّة حتّى صدور العقل العاشر، ومن العقل العاشر وما يليه لا يفيض أيّ عقول أو أفلاك أخرى. والعقل العاشر يسبّب ظهور الهيولى، وهو ينظّم الوجود في العالم الموجود تحت فلك القمر.

وفي شرحه للمسألة نفسها، رأى ابن سينا – مثل الفارابي – أنّ الاعتبارات العقليّة الثلاثة هي السبب الرئيسيّ لـ"صدور الكثرة عن الواحد" في العقل الأوّل والعقول الأخرى. ولكنّه – على خلاف الفارابي – يتّبع نظامًا ثلاثيًّا، حيث يعتقد أنّ هناك ثلاث اعتبارات عقليّة – تعقل وجوب الوجود، وتعقل الإمكان، وتعقل الذات– هي التي تسبّب ظهور عقل آخر، ونفس وجسم وفلك آخرين، وتستمرّ العمليّة حتّى العقل العاشر. وفيما يخصّ العقل العاشر، يتبنّى ابن سينا رأي الفارابي نفسه ويعتقد أن لا عقل أو فلك يفيض عن العقل العاشر.

أمّا في المدرسة الإشراقيّة، فالأمر يختلف عن المدرسة المشّائيّة، إذ ليست الاعتبارات العقليّة هي التي تسبّب الكثرة في عالم الوجود، بل المظاهر الخارجيّة والإشراقيّة والقاهرة.

فبحسب المدرسة الإشراقيّة، يوجد حبّ وعشق بين الأنوار من جهة، وسيطرة وقيّوميّة من جهة أخرى. فكلّ نور مجرّد أعلى هو قاهر للنور المجرّد الأدنى، وكلّ نور مجرّد أدنى لديه نوع من الحبّ والعشق للنور الأعلى. وقيّوميّة الأعلى على الأدنى لا تمنع النور الأدنى من ملاحظة الأعلى طالما أنّه لا يوجد حجب بين الأنوار المختلفة.

كما أنّ الأنوار الأدنى صدرت عن الأنوار الأعلى وبالخصوص من نور الأنوار عبر الإشراق والتأمّل في حركتها الصعوديّة، بمعنى آخر، إشعاعات كلّ نور أعلى تنير الأنوار الدنيا وتزيد من نوريّتها. ومن جهة أخرى، يلاحظ النور الأدنى النور الأعلى، ونور الأنوار بشكل خاصّ، ومن خلال هذه العمليّة المستمرّة من الإشراق والتأمّل الموجودة بين الأنوار كموجودات حقيقيّة وخارجيّة وليس مجرّد اعتبارات، تظهر كثرة الموجودات في عالم الوجود.

2- كما ذكرنا سابقًا، وعلى العكس من الفلاسفة المشّائين، لا يوافق ملّا صدرا والإشراقيّون على حصر العقول بعشرة. ويقرّون بوجود علاقة عرضيّة. كما أنّ الإشراقيّين يقسّمون الأنوار، أوّلًا، إلى أنوار قاهرة، وأنوار غير قاهرة، ثم يقسّمون الأنوار القاهرة إلى طوليّة وعليا، وعرضيّة وسفلى.

يعني الإشراقيّون بالأنوار القاهرة تلك الأنوار المجرّدة كلّيًّا عن المادّة التي لا علاقة لها بالأجسام. ويقصدون بالأنوار غير القاهرة الأنوار التي تحلّ محلّ الأجسام، بحسب هذا التعريف إن النفوس الإنسانيّة والعقليّة هي من بين الأنوار غير القاهرة.

وبحسب التعريف الذي يورده الإشراقيّون، يوجد علاقة طوليّة بين الأنوار القاهرة العليا وهي مرتبة في نظام علّيّ نزوليّ. وهذه الأنوار مجرّدة كلّيًّا عن المادّة، لكنّ هذه العلاقة الطوليّة غير موجودة بين الأنوار القاهرة السفلى وهي مثل أرباب الأصنام النوعيّة التي تنقسم بدورها إلى قسمين:

1- أحد أرباب الأصنام النوعيّة ينتج عن تأمّل المرتبة الطوليّة. وهذه الأنوار تسبّب ظهور عالم المثل.

2- المجموعة الأخرى تصدر من الأنوار الناتجة عن المرتبة الطوليّة، وهذه الأنوار تسبّب ظهور عالم المحسوسات.

بحسب الإشراقيّين، لا يوجد سبب لحصر الأنوار الطوليّة أو العرضيّة (العقول) بعشرة عقول، وهناك بالتأكيد أكثر من عشرة عقول.

في كتابه القيّم **شرح الهداية الأثيريّة**، كشف ملّا صدرا عن اهتمامه بالمدرسة الإشراقيّة وحافظ على رأيه أنّ عدد العقول أكثر من عشرة. وناقش أنّ المبدأ المشّائيّ المشهور حول عدد العقول لا يمكن الدفاع عنه على أساس

المعطيات البحثيّة. ثم قدّم أسبابًا لبيان ظهور هذا المبدأ وقبوله الواسع لدى المشّائين. وهكذا تبريرات تبيّن عدم قناعة ملّا صدرا في حصر عدد العقول بعشرة، ويعتقد ملّا صدرا أنّ هناك سببين لنسبة هذين التعليمين للمشّائين:

1- اعتقد الفلاسفة المشّاؤون أنّ عدد الأفلاك كان في البداية تسعة، وبناءً عليه ولأجل مطابقة عدد العقول مع عدد الأفلاك قبلوا أن يكون عدد العقول عشرة، من بينها تسعة عقول تسبّب صدور عشرة أفلاك والعقل العاشر يتسبّب بصدور العناصر.

2- عدد الأفلاك أكثر بكثير من عشرة، من بين هذه العقول المتعدّدة هناك عشرة عقول لها السيادة على الباقين بالطريقة نفسها التي يسيطر فيها الفلك الكلّيّ على الأجسام السفلى.

كشف ملّا صدرا أيضًا اهتمامه الإشراقيّ بالعقول العرضيّة في كتابه النفيس **المبدأ والمعاد**، حيث عبّر عن اعتقاده أنّه بالإضافة للعقول الطوليّة هناك عقول أخرى تسمّى العقول العرضيّة التي هي الأعيان الثابتة للأنواع وتسمّى المثل الأفلاطونيّة.

مقارنةً لأفكار ملّا صدرا والصوفيّين حول كيفيّة صدور الكثرة عن الواحد. كما شرحنا سابقًا، يعتقد المتصوّفة أنّ الصادر الأوّل هو الوجود الكلّيّ والمنبسط الذي يشكّل كل مراتب عالم الإمكان، ويسيطر على المراتب الإمكانيّة كلّها وفي الوقت نفسه، منزَّه عن كلّ نقائصها وحدودها. إنّه يشمل هذه المراتب كلّها بدون تبدّد أو انفصال وهو مسيطر على الممكنات الأدنى كلّها. وينحصر بواجب الوجود وحده القيوميّة على الوجود المنبسط والموجودات كلّها.

بحسب المتصوّفة، الوجود المنبسط هو وجود لا بشرط، لأنّه مقيّد بقيد الإطلاق، إنّه لا بشرط مقسميّ وليس لا بشرط التعيّن كمصدر لكلّ الأقسام الأنطولوجيّة. ولأنّ كلّ موجود لا بشرط مدرك بشرط شيء ولا بشرط التعيّن فهو لا يحتاج إلى أيّ تعيّن أو واقعيّة أو كمال الموجودات الإمكانيّة، بل إنه حائز على كمالات الموجودات الأدنى في بساطته.

استعمل المتصوّفة أسماء مختلفة للإشارة إلى الصادر الأوّل منها، التالية:

"العماد، الجامع، حقيقة الحقائق، وجود الأحديّة، العقل الأوّل، الروح الكلّيّ، العقل، الحقيقة المحمّديّة، الروح الأعلى، الفيض المقدّس، الفيض الكلّيّ، العناية الثانية، وغيرها".

لقد ناقش السيّد حيدر آملي هذه المسألة بالتفصيل في **نقد النقود في معارف الوجود**، وقد أشرنا إلى بعض مناقشاته في هذه المقالة، إضافةً إلى أنّ مقدارًا كبيرًا من الأدلّة قدَّم لإظهار أن ملّا صدرا لم يعبِّر عن أفكاره باتّساق في ما يخصّ الصادر الأوّل في كتبه المتعدّدة.

في بعض كتبه ورسائله، وتماشيًا مع المشّائين، اعتبر الصادر الأوّل عقلًا أوّلًا وفي بعضها الآخر، تماشيًا مع المتصوّفة، اعتبره الوجود الكلّيّ والمنبسط، والأسئلة التي يمكن أن تطرح هنا هي:

هل يمكن توحيد هذين التعليمين معًا؟

إذا كان الجواب نعم.

ما هي الطريقة التي يجب تطبيقها لتأسيس هذا الاتّحاد؟

وهل يمكن للملّا صدرا أن يكون قد تبنّى أحد التعليمين في وقت ما، ثمّ رفضه في ما بعد؟

ما هو رأي ملّا صدرا النهائيّ بهذه المسألة؟

يمكن أن نعطي أجوبة مختلفة لهذه الأسئلة. تمّت مناقشة بعضها بالتفصيل في المقال، وأسباب قبولها أو رفضها ثمّ توضيحها، وفيما يلي سنعرض بعضها بإيجاز.

1- يعتقد بعض المعلّقين على كتابات ملّا صدرا، أن لصدرا قدرة تعبيريّة وأسلوبًا خاصًّا في الكتابة عن المسائل الفلسفيّة. في توضيح وتفسير مسألة فلسفيّة على أساس الفهم العرضيّ، يناقش ملّا صدرا أوّلًا فكرة الفيلسوف بشكل عامّ، ثمّ يقدّم نظريّته الأخيرة في الوقت المناسب، وهكذا، عندما يقدِّم ملّا صدرا، تماشيًا مع بعض الفلاسفة، العقل الأوّل كصادر أوّل يكون فعلًا يمهِّد الطريق لطرح رأيه الخاصّ النهائيّ. في هذه المناقشة، رأي ملّا صدرا النهائيّ هو أنّ الصادر الأوّل هو نفسه الوجود الكلّيّ والمنبسط.

2- ما زال هناك وجهة نظر أخرى تفيد أنّه لا يوجد فرق أساسيّ بين اعتبار الصادر الأوّل العقل الأوّل، أو الوجود المنبسط، إنّما مصدر الفرق هو الفروق اللغويّة في التعبير عن هذين المبدأين وليس من الفرق بين الأسس والمضامين. وفي مقارنتنا أفكار الفلاسفة المشّائين وأفكار المتصوّفة بخصوص الصادر الأوّل، أكّد السيّد حيدر الآملي أيضًا أنّ هذين المبدأين هما مختلفان فقط في اللفظ والتعبير وليس في المضمون، فكرته طبعًا تتوافق مع فكرة ملّا صدرا ولكنّها لا تهيمن عليها.

3- الفيلسوف المعاصر آية الله حسن زاده يعتقد أنّه لا يوجد أيّ تعارض بين المبدأين طالما أنّ "مخلوق الله الأوّل" هو العقل الأوّل الذي يتّفق عليه الفيلسوف والصوفيّ، وأنّ "الصادر الأوّل" هو الوجود المنبسط الذي له "المخلوق الأوّل" كمظهر من مظاهره. وعبارة خلق نفسها، هي دليل نهائيّ على هذا الادّعاء، كما أنّ كلمة خلق تعني القضاء والقدر وتتناسب مع الإرادة. وبالنتيجة، عندما يتكلّم ملّا صدرا عن الوجود الكلّيّ والمنبسط فإنّه يعني "الصادر الأوّل عن الله" وهكذا لا يوجد تعارض بين أفكار ملّا صدرا في كتبه المختلفة".

4- هناك طريقة أخرى لتوضيح أفكار ملّا صدرا فيما يتعلّق بالصادر الأوّل، وهي الإعلان أنّ جميع العقول هي حقيقة واحدة ولكن بمراتب مختلفة. من جهة أخرى، يحوز الوجود المنبسط على كلّ الكمالات في مراتب الخلق، وفي كلّ مرتبة يكون ملازمًا لتعيّن خاصّ يسمّى الماهيّة، ومهما يكن فإنّ هناك تأكيدًا على أنّ هذا لا يعني أنّ الوجود المنبسط قابل للتكيّف مع كلّ المراتب وأنّ كلّ مرتبة من الوجود يمكن أن تفرض حدودها على الوجود المنبسط، بما أنّ الوجود المنبسط منزّه عن كلّ قيد في إمكانه وهو مقيَّد فقط بقيد الإطلاق، لذا يقدِّم ملّا صدرا الصادر الأوّل كعقل أوّل وكوجود منبسط.

5- إنّ عبارة "أوّل" لا تستخدم بالمعنى نفسه لـ"عقل" و "الوجود المنبسط". إنّ كلمة "أوّل" في "الصادر الأوّل" كصفة لـ "الوجود المنبسط" هي "أوّل" حقيقيّ وليس نسبيّة. لكن إذا استخدمت هذه الكلمة كصفة لـ"العقل" والعقل الأوّل قُدِّم كصادر أوّل، فهو ليس "أوّل" حقيقيًّا لكنّه "أوّل" نسبيًّا؟ وهنا يعني أنّ هذا العقل يأتي بالمرتبة الأولى بالنسبة للعقول والموجودات الأخرى. وليس بالنسبة للوجود الكلّيّ والمنبسط.

6- في تعليقته على المجلّد الثاني من **الأسفار**، اقترح الحاجّ ملّا هادي السبزواري طريقةً أخرى لتوضيح أفكار ملّا صدرا كما يلي:

> إذا رأينا أنّه في بعض الحالات، يقدِّم ملّا صدرا، كما الفلاسفة، العقل الأوّل كصادر أوّل وفي حالات أخرى الوجود المنبسط كصادر أوّل، هذا لا يعني أنّ كليهما صادران أوّلان. في الواقع إذا تأمّلنا في الأسس والمبادئ التي يقبلها ملّا صدرا والمتصوّفة، سوف نجد أنّ في آرائهم، الوجود المنبسط ليس صادرًا البتّة، فضلًا عن كونه صادرًا أوّلًا أو ثانيًا. بل الوجود المنبسط هو الصادر الحقيقيّ والفعل الإشراقيّ لحضور الحقّ. مع الأخذ بالإعتبار [بالاعتبار] موقع الوجود المنبسط، لا نستطيع إقتفاء [اقتفاء] أثر وعاء الإشراق حتّى من التحليل الفكريّ والتأمّل العقل [العقليّ]. إنّ موقع الموجودات المفاضة من العقل الأوّل وليس هناك صادر سابق عليه بحيث يكون الوجود المنبسط مقدّمًا كصادر

أوّل. قبل العقل الأوّل هناك مركز الصدور الذي هو مختصّ بالوجود المنبسط، يتابع السبزواري لهذه الطريقة. لا يعني ملّا صدرا والمتصوّفة بالصدور لا متناهٍ ناتجًا عن التحليل العقليّ لكنّ الصدور بمعناه الحقيقيّ.

7- يمكن أن ندرس العالم بشكل إجماليّ، وبشكل تفصيليّ، فإذا درسناه بشكل إجماليّ يكون الوجود المنبسط هو الصادر الأوّل، لكن إذا درسناه بشكل تفصيليّ يكون العقل الأوّل هو الصادر الأوّل. في أماكن أخرى من كتابه **الأسفار**، حاول ملّا صدرا تقريب وجهات النظر بين أفكار الفلاسفة والمتصوّفة.

بالنسبة للنقاط التي تمّت مناقشتها، يمكن استنتاج أنّ ملا صدرا احترم أفكار المتصوّفة المتعلّقة بصدور الكثير عن الواحد ودافع عنها كمبدأ صحيح. وهذا كلّه يشير إلى اهتمامات ملّا صدرا الصوفيّة في هذا الخصوص.